في الأدب المقارن

أثر المـــرأة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

للمرأة أثرها الخطير في المجتمع ، ولمنزلتها من الارتفاع أو الانحطاط أوثق الصلات بتقدم المجتمع أو تأخره ، واطراد رقيه أو ابتداء تدهوره ، ولنظرة الرجل إليها ومعاملته إياها أبلغ الدلالة على سمو الأخلاق أو تدليها ، فالمرأة هي الأليف الذي يسكن إليه رجل اليوم ، والمربي الأول الذي ينشىء رجل الغد ؛ فاذا كان ذلك يأوي منها إلى صحبة ممتعة للنفس مغذية للشعور، وكان هذا ينشأ في حجر راعية نيرة حازمة ، فقد توفرت للمجتمع أكبر أسباب السعادة والنجاح . أما حيث تحتقر المرأة وتذاد عن نور العلم ازدراء لها واستهانة بوظيفتها ، ويساء فهم علاقتها بالرجل حتى لا تحسب تلك العلاقة سوى شهوة تافهة ، فذاك مجتمع دوام انحطاطه محتوم ، واطراد تدهوره بدهي ، إذ لانجاح لمجتمع تغمط فيه مكانة المرأة ، وتغفل وظيفة الأم ، وتجهل نعمة التعاون الزوجي

ولما كان للمرأة هذا الأثر العميق في المجتمع ورقيه وآدابه العامة ، كان لها في أدب اللغة أثر بعيد ومكان ظاهر ؛ فالى منزلتها من الرفعة أو الضعة ترجع الصبغة التي ترين على الأدب من وقار وعفاف أو استهتار وفجور ، وعلى التغني بجمالها والترنم بحبها يتوفر باب من أهم أبواب الأدب وهو النسيب ، وارتفاع شأنها في المجتمع مقرون دائما بازدهار الأدب ، لأن المجتمع الذي يجل المرأة ويتغنى بمحاسنها مجتمع صادق الشعور ، عالي النفوس ، وبعكس ذلك المجتمع الذي يزدري المرأة ويسخر منها وترين فيه الشهوة لا ينتج علماً ولا أدباً ، وارتفاع شأن المرأة في المجتمع مقرون كذلك بمساهمتها في الأدب منشئة وناظمة وناقدة ، والأدب لكل هذه الأسباب مرآة صادقة واضحة لمنزلة المرأة في المجتمع ، ومنزلة المجتمع من الرقي ، وحظه من الأخلاق

كان للمرأة العربية على العموم في الجاهلية وصدر الاسلام لاسيما نساء السادة والأشراف ، منزلة عالية : كانت تشارك الرجل أعمال السلم وتعاونه في إبان الحرب ، واشتهرت نساء كثيرات في تاريخ تلك العهود ، واحترفن الأعمال كالطب والتدريس ، وشاركن في السياسة فتركن أثرهن في سير الحوادث ، وزاد الاسلام منزلة المرأة ارتفاعاً وحررها من كثير من أسباب الشقاء التي كانت تقاسيها نساء الطبقات السفلى ، ومما له دلالته على مكانة المرأة إذ ذاك أن كبار الرجال كانوا يعتزون بالانتساب إلى أمهاتهم وعصباتهن ، وكانوا يلقبون في مواقف التبجيل والمدح بابن هند وابن عائشة وابن ذات الطاقين

هذه المكانة المحترمة التي تمتعت بها المرأة في المجتمع في ذلك العصر ، تركت آثارها واضحة في أدبه : فقد كان أدب ذلك العصر مزدهراً قويا صادق العاطفة نبيل الغرض في جملته ، وكان للمرأة فيه ذكر مردد ، تستهل بذكرها القصائد ، وتنظم في الترنم بحبها الأشعار . ويسجل الشاعر حواره مع زوجه في شتى الشئون في القصيدة يبدأها بقوله : « وقائلة . . . فقلت لها . . . » ؛ ويبلغ النسيب في هذا العصر أعلى درجاته من الرقي وعمق الشعور وعفة المقال . وما أجمل نسيب عنترة بعبلة ، ومناجاة جميل لبثينة ، وهتاف قطري بن الفجاءة بزوجه أم حكيم ؛ وساهمت المرأة في الأدب ، فأثر عن كثير من الأعرابيات غرر من سحر البيان ، وعرفت نساء من خيرة المسلمات بالرواية والنقد ، وظهر في هذا العصر أكبر شاعرتين في تاريخ الأدب العربي : الخنساء وليلى الاخيلية اللتان ضارعتا الفحول رصانة قصيد وجودة معان ؛ وكان بجانبهما العدد العديد من الشاعرات المجيدات اللائي كان بعضهن يساجلن محبيهن شعراً ؛ وتفاخر الشعراء بالعفة وحسن المعاشرة والجوار ورعاية مكانة المرأة ، قال مسكين الدارمي :

ما ضر جاري إذ أجاوره ألا يكون لبيته ستر
أعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر

هنالك بلغ المجتمع الاسلامي أوج رقيه ، ثم داخله عوامل الفساد بتضخم الملك الفجائي وانتشار الثروة والجواري والغلمان وذيوع الترف والانصراف إلى الشهوات ، ومخالطة الشعوب المختلفة واقتباس الضار من تقاليدها . ووهنت أخلاق العرب القويمة التي رفعوا بها لواء سيادتهم ، فضعفت روابط الأسرة بذيوع التسري ، وانحطت نظرة الرجل إلى المرأة بانتشار صناعات القيان والمغنيات والراقصات ، وفشت الريبة وشدد الحجاب على المرأة وعزلت عن المجتمع فحرمت العلم والنور والحياة ، وحرم المجتمع تأثيرها المرقق للشعور والمتسامي بالاداب ، وازداد المجتمع انحطاطاً وشاع فيه هجر القول ، وخلا تاريخ ذلك العهد من اسم امرأة واحدة ذات أثر في حياة الأمة

فهذا الطور الثانى من تاريخ المرأة العربية مضادللطور الأول سارت فيه مكانتها إلى انحطاط مستمر ، وبدا أثر ذلك الانحطاط فى أدب ذلك العصر : اتسم بالاخاش والاقذاع ، وضعف وحل التقليد فيه محل الابتكار ، والزخرف اللفظى محل الشعور العميق وأصبح النسيب فيه إما بذيئاً شهوانياً كأشعار بشار . وإما تقليدياً وهمياً أجوف كاستهلالات البحترى ، وشبب بعض المجان بالذكور ، وتفنن بعض الكتاب كابن دريد فى أحاديثه وصاحب كتاب المحاسن والأضداد ، والأصبهانى فى أغانيه فى إيرادالقصص الشهوانية والنوادر التى تبدو فيها المرأة متاعا يتهب ، أو مخلوقاً نزقا خائنا متقلبا ؛ ولم تنبغ فى الأدب امرأة يعتد بآثارها ، وإذا كانت القيان قد ألهمن الشعر كثيراً من الشعراء ، وكانت متنديات بجمعاً للأدباء ، فما أنتج ذلك كله إلا أدبا شهوانيا فاترا هزيلا ، وبعد أن كان الشاعر فى الطور السابق يتمدح بتبجيل المرأة ، ويتقرب إليها بالمكارم « لنحمد يوماً عند عز شمائله » كما قال كثير أصبح النيل منها والاغراء بها والتهكم بطباعها من هم بعض الشعراء ، قال بشار :

عسر النساء إلىّ مياسرة والصعب يسهل بعد ما جمحا

وقال غيره :

وإن حلفت لايخاف النأى عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

وهكذا حرم الأدب العربى إلهام المرأة السامى الجميل ، وما أقل ما بقى من مناديح القول لأدب حرم ذلك الالهام ! وجاء شعر الدول العربية فى أوج ازدهار الأدب خلواً من تاريخهم الغرامى الصحيح ؛ فهل كان لأبى تمام والبحترى والمتنبى غرام صادق عميق ، صهرت فى تنوره نفوسهم ، وتكشفت لهم الحياة من خلاله عن عوالم جديدة من الاحساس والتفكير . إن أثر ذلك معدوم فى شعرهم ، وليس فى شعرهم إلاالنسيب التقليدى الاستهلالى المملوء بذكر هند ودعد ، والكثبان والأغصان ، والأطياف والمدامع؛ لا يثير فى نفوسهم هذه العواطف العجيبة إلا الطمع فى عطايا الممدوحين ، أما النسيب المستقل بكل القصيدة المقصود لذاته فليس هناك . وبلغ من موت العلاقة السامية بين الرجل والمرأة أن المتنبى نفسه كان لا يكاد ينظم فى النسيب الاستهلالى أبياتا تحمله عليها تقاليد الصنعة حتى يبرم ويتململ ، فيزيح النسيب جانبا صائحا بصاحبته المتخيلة : صلينا نصلك فى هذه الدنيا ، فان مقامنا فيها قليل ، فان لم تصلى فاذهبى ودعينى أستطرد إلى ما هو أهم من أمرك من امتداح هذا الكريم ذى العطايا الجزيلة ، أو ربما انقلب على محبوبته وجنسها هاجيا ، فقال إن القوافى جميعا ضياء فى بواطنه ظلام .

ولم يقتصر التهجم على المرأة على ذرى المجون وعبيد الشهوات بل اتخذ سبيله إلى كتابات المفكرين ، وتقنع بمظهر العلم فى آثار المعرى الذى صب فى لزومياته جام غضبه على المرأة ، ورماها بالغدر وشبهها بالأفعى ، وعاد إلى تشديد الحجاب عليها ونهى عن تعليمها حتى تقويم السطور ، ولا ريب أن مزاج المعرى السوداوى وحياته المقفرة من حنان المرأة ، ونقمته على الحياة جميعا ، كل ذلك كان ذا أثر فى نظرته القاسية إلى المرأة ، واعتباره إياها رمزا للحياة فى جهلها وتقلبها وغدرها ، بيد أن ظروفه الشخصية التعسة هذه إنما هيأته ليكون معبرا عن أفكار عصره الذى كان يعج بالفساد والاضطراب والانحطاط الخلقى ، فلا ريب أنه كان يجد آذانا صاغية ، وأنه مسؤول عن بعض ما حاق بالمرأة بعد ذلك من قهر وإهمال .

فتاريخ المرأة العربية طوران : الأول طور رقى مصاحب لسمو الأخلاق ورقى المجتمع ونهوض الدولة وازدهار العمران ، والثانى طور انحطاط معاصر لقعود الهمم وتدهور المجتمع وإدبار السلطان وركود الأدب ؛ أما تاريخ المرأة الانجليزية فهو طور رقى مستمر مطرد من عهد شكسبير إلى الوقت الحاضر ، ازدادت فيه المرأة حظا من التعليم والاحترام والمساهمة فى الأعمال ، ولم تعترض ذلك الرقى المطرد إلا فترة رجعة فى عهد الملكية العائدة من فرنسا فى القرن السابع عشر ، وما لبثت تلك الفترة الماجنة أن تلاشت إذ صمد لها الخلق الانجليزى المتين ، وشمر لاماطة آثارها كبار الهمم من الأدباء المثقفين . وتابعت المرأة سبيل رقيها المقرون برقى الأخلاق وسيادة الآداب العامة وتقدم المجتمع .

كانت منزلة المرأة فى عهد اليزابث على درجة من الرقى محسوسة وكان بنات السراة ينلن من التهذيب مثل حظ البنين ، واشتهرت منهن بسعة العلم كثيرات مثل ليدى جين جراى وليدى يكون والدة الفيلسوف فرنسيس بيكون ، وليس أدل على ارتفاع مكانة النساء فى ذلك العهد من قبول الشعب اليزابث ، وهى بعد فى حداثتها ملكة عليه دون تردد ، وإيلائه إياها من الولاء ما لم يوله غيرها من الملوك ، وإظهارها هى حنكة سياسية بذت بها ملوك أوربا وساستها ، ووضعت بها أساس مجد انجلترا ، وازن ذلك بما كان من ارتياع الناس فى عهد انحطاط المرأة العربية سالف الذكر ، حين وليت شجرة الدر عرش مصر ، حتى بعث الخليفة العباسى يوبخ أمراء مصر ويتوعدهم بالويل والثبور . إن لم ينتحروا ذلك

العار الذى يبقى فى الأجيال ، على حين لم يحرك أسلافه ساكنا يوم ولى نفس العرش عبد خصى ، كان يبرى بظفره القلم .

وأثر المرأة الانجليزية فى الأدب تبعا لرقى منزلتها الاجتماعية جليل ، يزداد وضوحا وشمولا على تقدم العصور : فهى تبدو فى قصص تشوسر تشارك الرجال أعمالهم ، وفى درامات شكسبير مثالا للقدرة الفائقة أحيانا ، وموضعاً للحب والتقديس تارة ، ورمزاً للطهارة والوفاء طورا ، وفى اشعار شكسبير ومعاصريه ومن جاءوا بعده من كبار شعراء الانجليزية نسيب حار العاطفة سامى النظرة ، وفى القصص والشعر دراسات لشتى الشخصيات النسوية ، وفيهما تمجيد للجمال وتبجيل للمرأة ، يتوسل إليهما بسرد خرافات الاغريق وبطلاتهم وإلاهاتهم ، وأساطير القرون الوسطى ، سردا شعريا خياليا ؛ وضربت المرأة فى انشاء الأدب بسهم وافر فكان من النساء شواعر وقصصيات بارين لفحول الرجال

ويبدو أثر المرأة الانجليزية فى المجتمع والأدب الانجليزيين على أوضحه فى القصة : فقد كان للمرأة الفضل الأول فى ظهور هذا الضرب من الأدب ، فعلى أيدى اديسون وستيل اللذين اهتما بتثقيف المرأة وتنقية المجتمع ظهرت بذور القصة ، ولما أخذت القصة شكلها الاجتماعى الحديث فى القرن الثامن عشر ، كان للمرأة دور رئيسى فى حوادثها ، ولولا اختلاط المرأة الانجليزية فى المجتمع ومساهمتها فى الحياة لما تمت القصة ، ولا وقفت على قدميها ، وقد جاء نموها وذيوعها مصاحبا لنهضة المرأة وازدياد حظها من التثقف . ولما بلغ ذلك الرقى الاجتماعى غاية بعيدة فى القرن التاسع عشر ، بانتشار الديمقراطية وذيوع التعليم العام ، نبغت جمهرة من كبريات القصصيات بارين كبار قصصيى العصر الحديث ، وفى مقدمتهن جين أوستن وشارلوت برونتى ومرجاسكل

والقصة ضرب من الأدب يلائم طبع المرأة أكثر مما يلائمه نظم الشعر الذى هو أشبه بالرجل ، لأنه يحتاج إلى قوة وخيامة وشمول نظرة لا تتسق كثيرا للمرأة ، التى انما صفاتها الدماثة والدعة ، أما القصة التى تدرس الحياة الاجتماعية وتصف الحركات والسكنات ، وتحصى التفاصيل وتتبع الحوادث وتسرد ما قيل وما فعل ، فتجد فيها المرأة خير مجال للتعبير عن خلجاتها ومشاهداتها ، وملاحظاتها الدقيقة للأشخاص والأشياء ؛ زد على ذلك ان المرأة تستطيع فى القصة ان تعبر على لسان غيرها عن نزعات الحب وأطواره ، تعبيرا لا يستساغ منها إذا هى أطنبت فيه شعرا

فالقصة أدب المرأة : ظهورها رهن برقى منزلة المرأة فى المجتمع ، فاذا ظهرت لفحول المرأة يدور حديثها ، وبين النساء تلقى الرواج والاقبال ، وفيها تجد المرأة خير مجال لمواهبها الأدبية ، ومن ثم أنتجت المرأة الانجليزية فى فن القصة خير إنتاجها الأدبى ، أما المرأة العربية فأخرجت أحسن آثارها فى الشعر فى طوره الأول ، فلما تطور المجتمع العربى وجاء أوان ظهور القصة الاجتماعية ، كانت عوامل الفساد سالفة الذكر قد اجتاحت مكانة المرأة وضربت بحجاب كثيف بينها وبين المجتمع والأدب ، فأفلتت القصة فى بدء نموها ، واستحال تطورها ورقيها ، وجاءت مقامات البديع التى هى الخطوة الأولى فى الأدب العربى فى سبيل القصة الاجتماعية ، خلوا من شخصية نسائية واحدة جديرة بالذكر ، ولم يعرض الحريرى إلا عجوزا يسحبها أبو زيد فى استجدائه ، او لكاعا يتابزها وتنافسه فى بذائه

ولنجاة المجتمع الانجليزى من مثل تيار الترف الجارف الذى غمر المجتمع العربى ، عقب الفتوح ، ظل ذلك المجتمع رفيع الآداب قويم الأخلاق ، وظل الأدب عفيف المقال ، وظل النسيب شريف اللفظ والغرض ، وخلا النسيب الانجليزى مما تدرن به النسيب العربى فى عصره المتأخر ، من تحدث بالشهوات ووصف لأجزاء الجسم وهجاء للجنس اللطيف وتغزل بالذكور ؛ فاذا حمل على المرأة خصم عنيد كملتون الذى وصمها بالزلق والختل وجعلها دون الرجل منزلة ، وجعل شخصية « دليلة » فى قصته الشعرية « سمسون الجبار » نموذجا لها ، أو سلك مسلك الاستهتار والتبذل كبيرون الذى كان يقرن الانقياد للشهوات باحتقار المرأة ، لم يجد من حوله إلا صدى ضعيفاً لا يلبث أن يتلاشى مع صوته ، ويتابع المجتمع سبيل تقاليده التى درج عليها ، تقاليد الاعتدال والتعفف واحترام المرأة

فأثر المرأة فى الأدبين العربى والانجليزى جلى خطير ، بيد أنه أجلى وأجل خطرا فى الأدب الانجليزى ، وهو فى الأدب العربى دليل ارتقاء تبعه انحطاط ، وفى الانجليزية برهان ارتقاء مطرد ، فى المجتمع والأخلاق والأدب ، ومكانة المرأة الانجليزية العالية فى مجتمعها مرد ما يمتاز به الأدب الانجليزى عامة والنسيب خاصة ، من عفة ووقار ؛ وهبوط مكانة المرأة العربية فى عصور التدهور مرجع الفحش الذى ذاع فى النسيب والهجاء وغيرهما من أبواب الأدب العربى فى عصوره المتأخرة ، وبرغم تساوى المرأة العربية والمرأة الانجليزية فى تقصيرهما دون الرجل فى حلبات الأدب ، وضآلة أثرهما فيه إذا قيس بآثار الرجل فى شتى الأغراض ، فإن المرأة الانجليزية تفوق العربية فى كثرة إنتاجها الأدبى ، كما فاقتها فى كثرة ما أنشأ الرجل حولها من أدب ، وما استلهمها من وحى ، للسبب عينه : وهو أن المرأة الانجليزية كانت أكثر مساهمة فى المجتمع وأرفع منزلة فيه

فخرى أبو السعود